بيت الذكريات

للأستاذ غائب طعمة فرمان

خمس عشرة سنة مضت وهو بعيد عن وطنه ؛ يعاني الآم الغربة ، ويكافح أعباء الحياة ، ويتلمس الطريق إلى مستقبل جميل .

خمس عشرة سنة لاقى فيها أشد العناء ، وقاسى ضروباً من الفاقة والعسر وثقلت على عاتقه تكاليف العيش ... واليوم يرجع إلى وطنه بعد الكفاح المضني ، والفراق الطويل ، وقد أعيى من عينيه إئتلاق الشباب ، وتحولت صباحة وجهه إلى جهامة منكرة وذبول حزين ... فقد حطم خمساً وثلاثين سلسلة من السلاسل التي تربطه بالوجود ، وأخذ يترقب الاعمار إلى الجانب الثاني من تل الحياة ليستقبل السلام الأبدي في قرارة الوادي السحيق ! فلاح الإجهاد على محياه ، وغشيه موج من الحزن عميق

الآن يرجع إلى وطنه ، ويستقبل هذا الشارع الضيق الذي يعرفه حق المعرفة ، وتصدمه رائحة العفونة المنبعثة من أكوام الأقذار ، وتملأ عينيه بمنظر الأحجار التي ما زالت قائمة بها يد الإنسان ، ولم تنل منها صروف خمس عشرة سنة ! .

يا للعجب ! .. ويا لمرارة الذكرى ! .. خمس عشرة سنة ما أحفلها بالأحداث والغير ، وما أترعها بالشجون والغصص ، وما أكثر ما غيرت منه ، وما جارت على بنيانه الأنساني ! وتنقلته من حال إلى حال . ولكن الشارع ما زال كما عهده لم يتغير منه أي شيء ! . إنه ليتذكر كل شيء فيه كأنما غادره أمس .. رحل عند إغفاءة النهار في أحضان الليل ، ورجع في يقظة الليل على ترانيم الفجر ! . فإن صور الليلة التي غادر فيها موطنه ما زالت مرتسمة في صفحة خياله ، وما زالت ظلالها الحية عالقة في ذهنه . وإنه ليتذكر أمه وهي تتشنج لتعبر عن عاطفتها الحبيسة ، وتضطرب شفتاها كورقتين ذابلتين ، وتشرق عيناها بالدموع وهو بين ذراعيها مخنوق العبرة ، ذاهل الفكر ، مسلوب الإرادة .

وكان الطريق — إذ ذاك — متوشحاً رداء الغروب كأنه يحس بلوعة القلوب الواجفة ! ...

واليوم يرجع إلى أهله ، ونفسه مفعمة بالحزن الكظيم ، ومشاعر لا يتبينها في منظار ضميره ، وفي عين وجدانه . ولكنه يضرب برجليه في تراب الطريق الحائل اللون ، ويتعثر بحجارته الصغيرة السوداء ، وعيناه تحدقان بالبيوت القائمة على الجانبين كأنها تنتظره ! .

وامتلأت خياشيمه برائحة كان ينفر منها أشد النفور ، ويضيق بها أعظم الضيق ، ومع ذلك فقد كان يلقاها مكرهاً حين يخرج من بيته ، ويعبرها — مسوقاً إليها — حين يعود إليه . ولكنه اليوم يحس إحساساً قوياً عنيفاً بأنها تعطر نفسه التي أفسدتها الغربة ، ودسها الجفاف !

ما أجمل هذا الطريق ! وما أبدع ما سطر من ذكريات في سفر السنين ، قليلها حلو سائغ ، وسائرها مر مترق في المرارة ! فهو لا يكاد يذكر أنه قطعه مرة وهو خالي النفس من الألم ، ساهي الفكر من الهواجس والظنون ، فكثيراً ما كانت تعتل نفسه بالألم ويحس بالضيق يدب في مفاصله ؛ فيهرع إلى بيته يلوذ به من الهجير ويتقي تحت سقفه لوافح الألم وسموم الهواجس والظنون .

وقطع بعضاً من الطريق وهو يتلفت . كل شيء كما خلفه قبل خمسة عشر عاماً كأنما السنون تمر على جوانبه مر النسيم ! . وحتى لو يدلف إلى بعض البيوت ليرى سكانها أتغيروا مثلما تغير وعضهم الدهر بناجذيه كما عضه هو ؟ . ولا شك في أنهم سينكرونه أشد الإنكار لما أصابه من شحوب عنيف ، وكبر بالغ ، حتى كأنه قطع خمسين حجة ، وأفضت به السن إلى كهولة واهية ! . فالشيب تسلل إلى شعره كما تتسلل الخيوط البيض من الفجر في لمة الليل الفاحم والسنون اللاحقة بسمومها أذوت نضارته ، وسلبته المرح ، وأهدته كآبة لاذعة ، ووجوماً ثقيلا .

ووصل إلى بيته ، وأطل على باحته من العتبة العالية ، وألقى نظرة واجمة على الداخل . على الجدران المسودة من لفح الدخان ، والأرض المهشمة البلاط ، وأبواب الغرف الضيقة المظلمة الأغوار ؛ ولمح في تطواف عينيه كتلة بشرية جالسة القرفصاء ، مسندة رأسها على ذراعيها المتشابكتين .

وعروقها فتحركت في أرجاء نفسه اللواذع . وجاشت لواعج وجدانه فناداها : — أماه ! ... أماه !

فارتفع رأس المرأة الجاثة ، ونظرت عينان صغيرتان حائرتان ، وارتجفت شفتان ذابلتان ، واختلجت أسارير وجه مغروق .

أماه ! لفظ جميل سرى في جسدها كالتيار الكهربائي . . لقد أطال عهد سماعها به ، فلما سمعته ترددت في أعماق نفسها أصداء بعيدة ، صادرة من ماض سحيق ، واعترتها رعشة . ودار في خلدها أنها تعرف صاحب الصوت .

وتقدم المتغرب خطوات ثقالا ، فلمحت الأم شبحاً يقبل عليها فنظرت بجهد إلى وجهه ، فلاح لها من بين أهداب عينها وجه شاحب هزيل . فتمتمت قائلة وهي لا تصدق ما رأت عيناها

— عبد الرحمن ! ؟

وألقى الرجل جسمه في أحضان أمه كالطفل الخائف من الأشباح ! ، وحضنته الأم الشمطاء المحمومة التي طفقت تعبر عن حنانها بالقبل النهمة ، وتفصح عن شوقها بالهمهات .

وأرادت الأم أن تقول ولكن لسانها خانها ، فتلجلجت ، وتعثرت الألفاظ على شفتيها المرتجفتين ، فأمسكت رأس الرجل بيديها ، ونظرت في عينه كأنها تريد أن تستنطقها ، ولثمتها لثمات حرار وهي تبكي بصوت خافت .

ولم يستطع الرجل من جانبه أيضاً أن يعبر عن إحساسه إلا بشيء واحد وهو : أماه ... أماه ... بينما ظلت الأم تحت اللفظة السحرية تسكر وتحس نشوة من عبيرها الفاكي . ولكنها لا تعلك إلا اللثمات !

وأخيراً نطقت بصوت تترقرق فيه العبرة :

— أحق أن حلمي قد تحقق ، وأنك رجعت إلى بيتي بعد غياب طويل ! ؟

ومسدت بيديها شعره ، والتهمته بنظراتها وهو صامت بين يديها كالتمثال ...

قالت والعبرة لا تزال تقطر من ألفاظها :

— لقد عذبني غيابك ، وفرى صبري . لقد كنت أشفق عليك من أغوال الغربة ، وأخشى عليك انقطاع الأسباب بك . ويئس أهلك منك إلا أنا فقد كنت موقنة أعظم اليقين أنك سوف ترجع إلي يوماً ما .

وضمته إلى صدرها كأنها تريد أن تطرد الوساوس التي تناهبها . ثم قالت : — والآن رجعت . واستجاب الله دعائي وصلواتي . فقد كانت نفسي معلقة بك ، منتظرة إيابك ، تترقبه في كل لحظة ، وتتعزى بالأمل عن نكد الدنيا وغصص العيش .

وخنقتها العبرة كالكابوس ، وتفرست في وجهه الشاحب القطب المهيمن عليه الحزن والجمود ، وتطلعت إلى الجهامة المرتسمة على صفحاته . فأغمض الرجل عينيه واستسلم إلى ارتياح جميل !

وجاء أهله باشين به مهنئين . يا عجباً ! كأنه لم يعرفهم . . إن خمسة عشر عاماً كفيلة بأن تخلق جيلاً جديداً ، وتباعد بين المغترب وأهله . وتخلق برزخاً واسعاً بينه وبينهم !

وطوف ببصره في أرجاء المنزل ، منزل الذكريات . . يالله . ما أصلب هذا الحجر ، وما أعظم جبروته ! إن الكائن الإنساني تهدمه معاول الدهر ، وتزعزعه نكبات الأيام ؛ أما الجامد فإن الدهر يترقرق من جوانبه كما يترقرق الماء الزلال من صخرة جلمود !

ووقع بصره على غرفته الخاصة فرأى بابها موصداً ، ورأته أمه يحدق فيها فقالت :

— إنها كما تركتها ؛ لم تطأ عتبتها قدم ، ولم تجل في أرجائها عين . فقد كانت تذكرنا بك ، وتجعلك حاضراً معنا ، شاهداً على ما نلقاه من جراء غيابك . لقد أوصدت بابها في اليوم الذي سافرت فيه ، ومنذئذ كلما تقع عيني على بابها الثاني أتذكرك . ويخيل إلي أنك ما زلت فيها ، فتلفني الذكرى ، وتتحير في عيني الدموع ...

وجالت في خاطره فكر ، ومرت في مخيلته صور وأشباح . ونهض متثاقلاً كأنه يحمل على عاتقه خمسة عشر جيلاً من الهموم والأحزان ؛ ودفع باب غرفته فسمع لها صريراً أقشعر له بدنه . وخيل إليه أنه يلج إلى مقبرة ! . وطوف ببصره في أرجاء الغرفة المعرشة بخيوط العنكبوت ، المغبرة من تراب السنين . وجلس على كرسيه المغطى بطبقة سميكة من التراب ، وأسند كوعه على المكتب أمامه ، وظل يحدق في سقف الغرفة المختفي وراء طبقة من الظلام ، وأخرى من نسيج القدم !

وتدفقت عليه سيول من الأفكار كما تتدفق الأنوار على كهف مظلم مهجور ! .

ورأى نفسه يلقي على عاتقه خمس عشرة سنة من الزمن ،

وأ كثر منها فى عمر العاطفة والشعور . وقال فى نفسه :

— هنا .. وقبل خمس عشرة سنة كان يعيش شاب .. ابتلى بحمى العاطفة !

وارتسمت على فمه ابتسامة باهتة ساخرة .. كأنه يسخر من ذلك الشاب المثقل من الأشواق ! . . وراح يستطلع ما خبأه فى كوة الماضى البعيد ...

إنه ليتذكر الماضى على أحسن صورة . . كأنما الأشياء كلها وقعت بالأمس ... يتذكر ذلك الشاب الترق البعيد الآمال ، المجنون بحب المستحيل ، السارى فى دياجى الأحلام ، العبد الذليل لعواطفه ! ويتذكر كيف أنه كان يضيق بالحياة ، وتمتلئ جوانب نفسه بالثورة على كل شئ ، ولأى شئ ... وإنه ليتذكر ليلة كان القدر يخط سطراً كبيراً فى صفحة وجوده . . سطراً يحسبه كالعنوان لقصة حياته المملة التى فقدت عنصر التشويق . . تلك الليلة التى لقيها فيها . . إنه ليتذكرها - فتاة السابعة عشرة غضة لينة ، تنطق قسمات وجهها بعابيث فى نفسه الحائرة برد الاطمئنان وقد سحرته عيناها البراقتان ، وبثتا سحرهما فى قلبه الضعيف الأصوار !.. وألهبتا وجدانه ، فكان يهرب إليها من جحيم واقعه لينظر إلى سواد عينيها . إلى تلك البحيرة التى تعكس أنوار مستقبله

كانت « سناء » جارة الجنب يراها كل يوم ... زهرة ندية فياضة بالعطر والندى .. فيتطلع إليها ، وتصده نظرات من عينيها ذوات معان لم يعرفها وهو ابن العشرين ... ولكنه كان يحس فى قرارة نفسه بأن النظر إليها شئ جميل جداً ورائع جداً . . وكان سحر العيون أشد من كل سحر قلبه ، لا يستطيع أن يرده بإرادة ولا أن يخمده ببرود . . وكانت عيناها البراقتان كفيلتين بإذكاء النار الخامدة فى قلبه ! ... وأى شئ كان أضعف من قلبه ؟!

وشعر بأنها هى الأخرى تحبه ، فقد انبجس له من افترار شفتيها ، وانطلاق روحها ، وانبساط محياها أمل حلو فى أنها تحبه ، وتبادله عاطفة بعاطفة مثلها . . وإنه لن ينسى تلك الليلة الحلوة المتعة عندما رجع إلى البيت فرآها تنتظره بجوارها الرشيق ، وتحرك أوتار قلبه بابتسامتها ، وتحدثه بعينيها الحسنتى التعبير .. وعندما اقترب منها عبق فى وجهه عطر خدر أوصاله !.. وعندما دلف إلى بيته كانت شفتاه نديتين ! . . وكان حبه قد أينع من ثمر حلو المساغ !

وأطلت من شفتى عبد الرحمن ابتسامة وقد وصل إلى هذا الوضع وقال فى نفسه :

— هذه القمة السامقة من كل حب . ولكن لابد للإنسان من الإنحدار حين يصل إليها

— لقد صدق الفرنسيون حين قالوا : « الحب يولد بالنظر ، وينمو بالقبل ، ويموت بالدموع » !.. فلابد من الدموع

وكأنه أحس بمرارة الدموع . . فقد كانت القبل تسكره ، وتذهب باتزانه .. فهام مع أحلامها فى واد محرم . . وظل يهوم فيه حتى استفاق على صوت أبيها يزمجر ويقطع كل سبب من أسباب حبه .

هناك أدركه الإعياء ، وخارت قواه . . ولاحت له الدنيا مثارة مخيفة !.

وتذكر ليلة الوداع . . حين جاءت إليه تودعه ، وتلقى فى مسامعه كلمات تزيده لوعة وهى المرأة الضعيفة ... وقالت له :

— إنها متحيا من أجله . ومن أجل شىء أعز عليها من نفسها.

واختلجت فى صدر عبد الرحمن لواعج وأشجان وهو يسترجع موقفه معها ، ويرى فى عينيها قصة آمال محطمة ، وخيبة مريرة فيقول فى سره :

— الحياة رحلة مضنية ! أدنى ما ينال المسافر منها التعب ، وأقرب ما يطرق باب نفسه فيها الإجهاد والضيق . . ثم السأم المطبق .

وأحس بأن غرفته أصبحت سجناً مظلماً ، وذكرياته أشباحاً مرعبة . فضاق صدره وطلع منها لمل الفضاء ، والنور والهواء التى يطرد أشباح الماضى وأطيافه المقيتة !

واستقبله شاب فى الخامسة عشرة ، منطلق الأسارير ، براق العينين ، مؤتلق الشباب . فنظر إليه طويلاً كأنه يعرفه . فقالت له أمه :

— هذا جميل .. ابن سناء . .

وارتجفت شفتاه وهو ينظر إلى وجه الشاب المتسائل وفى أرجاء نفسه يسمع صوتاً ينادى :

— ولدى !..

غائب طعمة فرمان

زوروا :

متحف فؤاد الأول

(أمام مخزن بضائع محطة مصر)
أسكات حديد تلغرافات وتليفونات الحكومة المصرية

لتشاهدوا تطورات وسائل النقل البرية والبحرية والجوية فى مختلف الأزمان واقرءوا أكبر وأدق مجموعة من النماذج والخرائط والصور المضاءة لتاريخ النقل فى مصر والخارج

المتحف مفتوح للزيارة كل أيام الأسبوع ما عدا أيام الإثنين والعطلات الرسمية كما يأتى :

فصل الشتاء — من أول نوفمبر إلى آخر أبريل
من الساعة ٨ ٣٠ إلى الساعة ١٤ ٠٠

فصل الصيف — من أول مايو إلى آخر أكتوبر
من الساعة ٨ ٠٠ إلى الساعة ١٣ ٣٠

خلال شهر رمضان
صيفاً : من الساعة ١٠ ٠٠ إلى الساعة ١٣ ٣٠
شتاء : من الساعة ١٠ ٠٠ إلى الساعة ١٤ ٠٠

رسم الدخول ٢٠ مليماً

تليفون رقم ٤١٩٦٤

إدارة البلديات العامة

تقبل العطاءات بإدارة البلديات العامة (بوستة قصر الدوبارة) لغاية ظهر يوم ١٩٤٩/١٢/١٩ عن عملية بياض وترميم أحواض الترسيب بمصلحة المجارى بالسويس . وتطلب الشروط والمواصفات من الإدارة على ورقة دمغة فئة الثلاثين مليما مقابل دفع مبلغ ٢٠٠ مليم خلاف أجرة البريد. وكل عطاء غير مصحوب بتأمين ابتدائى قدره ٢ ٪ لا يلتفت إليه .

٣٤٨٩

وزارة الأشغال العمومية

مصلحة الميكانيكا والكهرباء

مطلوب تقديم عطاء لغاية ظهر يوم ٢٠ ديسمبر سنة ١٩٤٩ عن توريد وتركيب الكابل الكهربائى الخاص بإنارة مستشفى الحميات بكفر الدوار . ويمكن الحصول على دفتر الشروط مقابل جنيه مصرى للنسخة الواحدة بخلاف ٦٠ مليما أجرة بريد ويقدم تأمين ابتدائى بواقع ٢٪ مع العطاء وإلا فلا يلتفت إليه .

٣٥١٣